المحاضرة الخامسة

السنة الأولى فلسفة الشرق الدكتورة بشرى عباس المحاضرة الخامسة

(٥) تاريخ فكرة أهل ما بين النهرين عند العالم

مما لا شك فيه أن فهم أهل ما بين النهرين للكون الذين كانوا يعيشون فيه اتخذ شكله الخاص عندما تكامل شكل الحضارة بوجه عام في هذه المنطقة أي في فترة الكتابة البدائية حوالي منتصف القرن الرابع ق.م.

وقد سبق ذلك دخول الإنسان وادي الرافدين لأول مرة، وتوالت عليه الثقافات ما قبل التاريخية كلها أساساً متشابهة ليست فيها واحدة تباين أية ثقافة من أي مكان آخر من العالم، كانت الزراعة في أثناء تلك الآلاف من السنين هي عماد الحياة، وكانت الأدوات تصنع من الحجر، ونادراً ما صنعت من النحاس، ويبدو أن القرى المؤلفة من عائلات كبيرة كانت هي النمط من الاستيطان، والتباين البارز الوحيد الذي نشاهده بين ثقافة وأخرى في هذه الفترة هو في كيفية صنع الفخار وتزيينه بالنقوش وهو ليس بالتباين الشديد الأهمية.

ولكم مع بداية الكتابة تغيرت الصورة فأصبحت حضارة وادي الرافدين أكثر وضوحاً، فالشكل الأساسي الذي سوف تعيش البلاد على أساسه سيثير أعمق الأسئلة، حيث ظهر الري المنظم بواسطة القنوات على نطاق واسع وهو ما اتصفت به الزراعة دائماً في أرض الرافدين.

وواكب الري زيادة في عدد السكان، وتوسعت القرى القديمة إلى مدن، ونشأت أماكن استيطان جديدة فغدت القرية مدينة برز نمط جديد من الحكم عرف بالديمقراطية البدائية.

ففي دولة المدينة الجديدة كانت السلطة السياسية العليا في يد مجلس عام يشترك فيه جميع الأحرار البالغين، وفي الفترات العادية كانت شؤون الحياة اليومية تصرف بارشاد مجلس للشيوخ، أما في الأزمات فكان المجلس من حقه أن يخول أحد أعضائه السلطة المطلقة ويجعله ملكاً.

ولكن هذه الملكية منصب يتقلده صاحبه لزمن محدد أما المجلس الذي يخلق هذا المنصب يستطيع إلغاءه عند انتهاء الأزمة.

ولعل تركيز السلطة الذي أوجده هذا النمط السياسي الجديد، هو المسؤول مع بعض العوامل الأخرى عن ظهور هندسة هائلة الحجم في أرض الرافدين، فأصبح رؤية هياكل عظيمة تعلو السهول، وكثيراً ما تكون مشيدة على جبال عملاقة مصطنعة من الآجر المجفف بالشمس فالمباني الضخمة تدل على تنظيم معقد وإرادة دقيقة في الأمة التي أقامتها.

هذا التطور الاقتصادي والاجتماعي أدى إلى تطور روحي فاخترعت الكتابة وكان غرضها الأول تسهيل تدوين الحسابات الآخذة بالتعقيد، كما توسعت اقتصاديات المدن والهياكل، ولكنها غدت في النهاية وسيلة لخلق أدب من أهم الآداب، كما انتجت هذه الحضارة فناً متميزاً وما صنعه هؤلاء الفنانون يضاهي بروعته أجمل ما صنعه الفنانون في العصور المتأخرة.

وهكذا وجد العراقي القديم في الاقتصاد والسياسة والفنون في هذه الحقبة أشكاله التي يهتدي بها وأوجد أساليب معينة يعالج بها الكون، فحضارة ما بين النهرين أولت الكون بأنه يشبه الدولة.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الخامسة

موقف أهل ما بين النهرين من ظواهر الطبيعة

لاحظنا في الفصل الأول من حضارة وادي النيل، أن الدنيا لا تبدو للإنسان البدائي جماداً أو فراغاً بل هي عارمة بالحياة، وأن البدائي قد يجابه أي ظاهرة من ظواهر الطبيعة في أي لحظة لا /كـ هو/ بل/كـ أنت/.

والأنت في هذه المجابهة تكشف عن الفردية، والخواص والأشخاص، وقد ينحم عن التجربة المتكررة للعلاقة بين /الأنا والأنت/ نظرة شخصانية لا تناقض فيها فتشخص الأشياء والظواهر المحيطة بالإنسان على درجات متفاوتة فهي حية بشكل ما، ولها إرادة وكل منها شخصية محدودة، وهذا ما عبر عنه "أندرو لانغ" بقوله: (ذلك الخليط الذي تعيش فيه الناس والحيوان والنباتات والحجارة والنجوم على مستوى واحد من الشخصية والبقاء الحي)

فالملح هو مثلاً مادة جامدة أو معدن أما للعراقي القديم فهو كائن حي له أن يلجأ إليه إذا وقع ضحية للسحر فهو يخاطب الملح على النحو التالي:

أيها الملح، يامن خلقت في مكان نظيف

طعاماً للآلهة حملك /النيل/

بلدونك لا تحمد مادة في /ايكور/

أنا فلان بن فلان

وقعت أسيراً للسحر

وقعت محروماً في أحابيله

أيها الملح حل عني العقدة

ارفع السحر عني

وللقمح كالملح قوى خاصة فيلجأ المرء إليه كأنه كائن حي بل أن كليهما هي ذو إرادة وشخصية وهذا ينطبق على أية ظاهرة أخرى في عالم بين النهرين.

هذا ويمكن الحديث عن العلاقات بين ظهور الطبيعة كأنها علاقات اجتماعية وعن نظامها في أداء وظائفها كأنها نظام من الإرادات .

ولنأخذ مثلاً آخر: الأقصاب التي تملأ أهوار العراق، فما لديها من نصوص يدل دلالة واضحة الأقصاب بحد ذاتها لم تكن إلهية قط فالقصبة الواحدة ماهي إلا نبتة، أو شيء، وكذلك كلها ولكن للقصبة المحسوسة الواحدة، رغم ذلك صفات عجيبة توحي بالدهشة والرهبة ففي نموها المنوع في الأهوار قوة غامضة، وللقصبة قدرة على إتيان العجب كالموسيقى الصامتة في ناي الراعي أو العلاقات المليئة بالمعاني التي تتركها قصبة الكاتب فتتحول إلى أقاصيص قصائد، وهكذا نجد بأن العراقي القديم كان

Scanned by CamScanner

المحاضرة الخامسة

يحس بأنه في كثير من الظواهر الفردية يجابه ذاتا،، وأن هذه الذات الواحدة قد تحل في ذوات أخرى تباينها، فتمنحها بعض خواصها، وبعض هويتها والدليل على ذلك برقية كان العراقي القديم يتلوها لتتحد هويته بالسماء والأرض.

أنا السماء، ولن تستطيع النيل مني

أنا الأرض، لن تستطيع سحري

فالرجل هنا يحاول دفع السحر عن جسمه، فيتركز ذهنه في صفة واحدة من صفات السماء والأرض هي ألهما لا يحسهما أذى البشر، فإذا تشبه بهما سالت هذه الصفة إلى كيانها، فإمن الأذى من هجمات السحرة.

وهناك رقية أخرى تشبه هذه يحاول بها أحدهم أن يكسب المناعة عن كل عضو في جسمه بتوحده مع الآلهة والشارات المقدسة.

أنليل رأسي والنهار وجهي

عنقي قلادة الإلهة انليل

وذراعي منجل الهلال الغربي

وأصابعي طرفاء، عظم آلهة السماء

إنها تدفع عن جسمي عناق السحر

والتشبيه هنا جزئي لأن ما يرجوه هذا الرجل هو أن تحل صفات هذه الآلهة والشارات المقدسة في أعضاء جسمه، ولما كان المعتقد أن الإنسان يستطيع التشبه جزئياً بآلهة مختلفة كان الإله الواحد يستطيع التشبه جزئياً بآلهة أخرى، فيشاركها في طباتعها وقدراتها.

وقد يتخذ هذا القول بالتشبه أو التوحد الجزئي شكلاً يخالف الشكل السابق بعض الشيء، فهناك كتابات تقول أن الإله مردوك هو إله النيل إذا كان المقام مقام حكم او استشارة غير أنه الإله /سين/ إله القمر إذا كانت مهمته تنوير الليل.

وهكذا فإن كل ظاهرة يراها العراقي حوله كانت شيئاً حياً له شخصيته وإرادته، وذاته المتميزة إلا أن الذات التي تكشف عن نفسها في قطعة الصوان بقطعة الصوان مثلاً لم تكن محدودة بتلك القطعة، فهي فيها وهي وراءها

فكان على الإنسان إذا أراد فهم الطبيعة أي فهم الظواهر العديدة متباينة حوله أن يفهم الشخصيات الكامنة وراء هذه الظواهر وأن يعرف طباتعها واتجاه أرادها ومدى قوتها ذلك أشبه بفهم الإنسان الآخرين فكان الناس في ارض الرافدين يعتقدون أن المرء المسحور يستطيع تدمير الأعداء الذين سحروه بحرقه صوراً أو تماثيل له، ففي وسعه أن يؤذيها كما يؤذيه في شخصه، وهكذا يلقي الصور في النار.

أيها اللهيب اللاظي يا ابن السماء المقاتل

Scanned by CamScanner

المحاضرة الخامسة

يا من أنت أشد أحوذك بطشاً وتحكم في القضايا كالقمر والشمس

احكم في قضيتي وانطق بحكمك

احرق الرجل والمرأة الذين قد سحراني

فالرجل هنا يلجأ إلى النار لما يعرف من قدرتها على التدمير، ولكن للنار إرادتها وهي لن تحرق الصور وبالتالي أعدائه إلا إذا شاءت هين وهي عندما تقرر أن تحرق أو لا تحرق فإنها تصبح حكماً بين الناس كذلك الزوبعة الرعدية مقاتل يقذف بالبرق المربع، لقد قلنا أن الإنسان البدائي كان عندما حمل الكون بتكامل لنفسه كان يعيش في ديموقراطية بدائية وكانت القرارات الكبرى الخطيرة تنبثق عن مجلس عام لجميع المواطنين

تركيب الدولة الكونية

كان الكون لدى البابليين يضم كل مافي الوجود، بل كل ما يمكن أن يعد شيئاً ذا كيان كالبشر والحيوان والجمادات والظواهر الطبيعية، وكذلك الفكرة المجردة كالعادلة والحق جميع هذه الكيانات تعتبر أعضاء في الدولة لها إرادتها إلا أنها ليست على مستوى واحد ومقياس التمييز هو القوة.

ففي الدولة الأرضية كانت فئات كبيرة من الناس لا تساهم في الحكم فلم يكن للعبيد والأطفال وربما النساء أي صوت في مجلس الشعب، حيث لا يجتمع إلا الأحرار البالغون للنظر في شؤون الدولة وهؤلاء هم المواطنون بالمعنى الحقيقي.

فالناس لا يعتبرون إلا القوى التي تميز فيهم الرهبة، فيدعونهم بالآلهة، وهم وحدهم الحقوق ولذا كان المجمع الأعلى في الدولة هو مجمع الآلهة، ومجمع الآلهة هذا نقرأ عنه الكثير في أدب ما بين النهرين، ففيه تتخذ القرارات الخطيرة بشأن مصائر البشر وكل مافي الحياة، ولكن قبل اتخاذ القرار كانت المفترضات تناقش ولعلها أحيانا كانت تناقش بعنف بين المؤيدين والمعارضين من الآلهة، وكان المجلس إله السماء (أنو) يقف إلى جانب ابنه (إنليل) فيطرح أحدهما الموضوع على بساط البحث و يشترك فيه الآلهة، وكان لأصوات جماعة من الآلهة البارزين وزن خاص في هذا البحث وهم الآلهة السبعة، الذين يقررون المصائر، وعلى هذا النحو فيوصل المجلس إلى الاتفاق، فتقول الآلهة في النهاية دون تردد (فليكن، ثم يعلق القرار أنو وإنليل الحكم كلمة مجمع الآلهة مشيئة أنو وإنليل أما واجبات تنفيذ القرارات فتقع على عاتق أنليل).

زعماء الدولة الكونية

الآلهة التي تتألف منها مجلس الآلهة هي قوى كان سكان أرض الرافدين يحسون بوجودها فهي ظواهر الطبيعة العديدة، إذن أي هذه القوى كان له أبرز الأدوار في المجلس وأشد النفوذ فهي تصريف أمور الكون يمكن القول على النحو التالي:

كان /أنو/ أسمى الآلهة إله السماء وكان اسمه الكلمة الشائعة للسماء ولعل الدور الشامل الذي تلعبه السماء حتى كان ذلك ول بمعنى المكان والفضاء في تركيب الكون المرئي والمحل العالي الذي بكونها فوق كل شيء يفسر جعل /أنو/ أهم قوى في الكون، وكان أنليل الثاني بين الآلهة ومعنى اسمه /السيد العاصفة/ ويمثل جوهر العاصفة، وكل من اختبر زوبعة في بطاح العراق .يدرك رهبة هذه القوة الكونية، فالعاصفة سيدة كل ما تحت السماء.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الخامسة

أما عنصر الكون المرئي الثالث فهو الأرض، والأرض لقربها من الإنسان ولأهميتها في حياته شتى النواحي لم يكن من السهل أدراكها وحصرها ضمن نطاق فكرة واحدة، لذا نراها في شكل، لأنها المعطاءة التي تغدق النعم على الإنسان ونراها في شكل ملكة الآلهة، وسيدة الجبال وهي أيضاً مصدراً واهبة الحياة في الأنهار والقنوات وهي ترى في شكل بحر جوفي عظيم فيصفها بنبع هذه الحياة كانت في شكل مذكر.

قوة السماء السلطة

ففي قصة الخليقة البابلية، عندما يمنح \مردوك\ سلطة مطلقة فتلتزم قوى الدنيا وما فيها مشيئة ويتحقق كل ما يأمر به في الحال تغدو أوامره من جوهر \آنو\ مصدر كل سلطة ومبدؤها الفعال، في كلا المجتمعين الكوني والبشري إنه الطاقة التي تنفذ المجتمع من الفوضى وتجعل منه كلاً منظم التركيب وهو الطاقة التي تضمن طاعة الناس التلقائية للأوامر والقوانين والعادات في ي المجتمع وطاعتهم السنن الطبيعية في العالم المادي، أي النظام الدنيوي، فكما يقوم المبنى على أسسه/ ويبدي في تركيبه تقاطيع هذه الأسس هكذا يقوم الكون العراقي القديم على إرادة إلهية، ويعكس في تركيبه هذه الإرادة، فكلمة \آنو\ هي أساس السماء والأرض.

ففي\ اسطورة\ صعود\ غنائه\ يخاطب كبار الآلهة \آنو\ بقولهم:

ما تأمر به يتحقق

وما قول السيد والأمير إلا

ما تأمر انت به وما توافق عليه

يا أنوا كلمتك هي العليا

من يستطيع أن يقول لها كلا؟

يا أبا الآلهة إن أمرت

فأمرك أساس السماء والأرض

/أنو/ بصفته سيد الدنيا المطلق، والقوة العليا في الكون بوصف تمثل هذه الكلمات

يا صاحب الصولجان، والخاتم والـــ /بالو/

يا من تدعو إلى الملكية

يا سيد الآلهة يا من كلمتك هي العالية

في مجمع الآلهة الكبار المقرر

يا رب الناج المجد، يا مدهشاً

Scanned by CamScanner

المحاضرة الخامسة

يا غالب الزوابع العاتية وحر تقي منصبه الألوهة

قوة العاصفة البطش

عندما نتحدث عن إنليل /إله العاصفة/ نلقى قوة من لون جديد فهو كما يدل أسمه // إن ليل// أي السيد العاصفة سيد ما بين السماء والأرض بلا منازع، فإنه ولاريب ثاني القوى العظمى في الكون المرئي ولا يعلوه مرتبة إلا إله السماء.

والليل في العاصفة يكشف عن نفسه وما فيها من عنف وبطش مما يخبره الإنسان هو الإله هو الليل لهذا فعلينا فهمه وفهم وظيفته في الكون عن طريق العاصفة وما فيها من عنف وبطش.

حكمت مدينة /أور/ أرض بابل روحاً طويلاً من الزمن ثم سقطت في أيدي الححافل التي هبطت من الجبال الشرقية في هجوم مريع، فالخراب التام الذي أحاق بها تراه نحن من فعل الجيوش.

غير أن الأمر لم يكن كذلك بموجب فهم البابلي القديم لم يكن الجوهر المدمر العاتي في نظره إلا جوهر الليل و لم تكن الجيوش الغازية إلا الشكل الخارجي الذي ارتداه الليل فالجيوش الغازية هي ضرب من العاصفة ينفذ بها الإله الليل حكماً على / أور وأهلها/

تقول الأسطورة التي سجلت هذه الحادثة بالقول:

دعا أنليل العاصفة

والشعب ينوح

وأخذ من الأرض رياحاً منعشة

والشعب ينوح

وأخذ رياحاً طيبة من شومر

والشعب ينوح

ودعا العاصفة التي تسقي الأرض

ودعا زوبعة السماء

والشعب ينوح

والعاصفة التي أمر بها أنليل في حقده

العاصفة التي تأكل من الأرض

وهي سبب الدمار

Scanned by CamScanner

المحاضرة الخامسة

في ذلك اليوم تركت العاصفة المدينة

وكانت المدينة خرابا

وتقوب الأرض امتلأت بدمائها

كالمدن المصهور في قالب

وذابت الأجساد كالدهن في الشمس

ففي طاقات التاريخ الكبرى، وفي الضربات الساحقة التي يقررها مجمع الآلهة نرى دائماً أن جوهر العاطفة أنه البطش فنفذ أحكام الآلهة، وهو لا يقتصر دوره على تنفيذ قرارات العقاب إنه يساهم في أعمال العنف المشروعة، لذا فهو الذي يقود الآلهة في الحروب.

لقد عانت الأسطورة البابلية /إنوماإليش/ شيئاً من التقلب والاضطراب في تاريخها ، فنجد أن بطلها هو مرة هذا ومرة ذاك من الآلهة، غير أن الثابت ان الأسطورة في شكلها كان محورها الليل، أنها تصف الأخطار التي أطبقت مرة على الآلهة عندما هددتها قوة الفوضى بالهجوم، وكيف أن أوامر /انكي/ وأوامر /آنو/ بكل ما يدعمها من سلطة من مجيء الآلهة عجزت عن إيقافها وكيف أن الآلهة اجتمعت وأنتجت الليل الشاب ملكاً وزعيماً وكيف أن الليل قهر العدوة /تعاقت/ بالزوابع والأعاصير، أي بتلك القوى التي هي من كيانه.

ولكن رغم هذا، ما دام الليل هو البطش فإن في أعماق نفسه عنفاً وتكيلاً، فالليل السوي يضمن الكون ويضمن النظام إزاء الفوضى، غير أن عنفه قد يندلع فجأة منه دونما توقع.

قوة الأرض الخصب

العنصر الثالث في تأليف الكون المرئي هو الأرض وقد رأى فيها سكان وادي النهرين ثالث القوى الخطيرة في العالم وقد توصلوا إلى فهمها عبر تجربتهم المباشرة لها كإرادة داخلية ولذلك لم يكن من السهل على هذه الآلهة القديم /كي/ الأرض البقاء، وقد كشفت الأرض عن نفسها للبابليين القدامى على شكل الأرض الأم، ذلك المصدر الدائم العظيم الذي لا ينضب، فهي تكد في كل سنة العشب والنبات من جديد.

فالأرض القاحلة تخضر بين عشية وضحاها فيخرج الرعاة إلى المراعي وتلد النعاج الحملان الجديدان وسرعان ما تفيض البادر بغلال الحقول، وإذا ما شبع الناس أحسوا بفورة من الحياة في أجسادهم.

القوة الفاعلة في هذا كله /الأرض/ فالأرض كقوة إلهية هي /أمن تو/ أي السيدة الوالدة وهي /نغ رزي، غال، دم، مي/ أن صانعة كل ما في نسمة الحياة ونراها في المنحوتات كامرأة ترضع طفلاً وهي كذلك أم البشر وخالقتهم ولذلك فهي تجلس إلى جانب أنو والليل وهي السيدة التي تقرر المصائر والسيد التي تتخذ القرارات بشأن السماء والأرض.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الثامنة

قوة الماء الخلق

ومن الأرض تأتينا المياه التي تهب الحياة، ويبدو أن هذه المياه التي تقيم في الأرض كانت تعد في الأزمنة المبكرة جزءاً من كيانها، فهي أحد الأوجه الكثيرة التي يمكن أن ترى الأرض منها فإذا رؤيت اعتبرت القوة الظاهرة فيها ذكراً /أن-كي/ أو سيد الأرض وفي الأزمنة التاريخية نجد أن اسم /انكي/ والدور الذي يلعبه في بعض الأساطير هما وحدهما اللذان يشيران إلى أنه هو الماء العذب الذي يرمز إليه لم يكونا إلا وجهاً من أوجه الأرض، غير أن المياه وما فيها من قوة حررت نفسها وغدت لها شخصيتها المستقلة وجوهرها الخاص فكانت القوة الخلاقة، وإرادة إلهية لإنتاج حياة جديدة وكائنات جديدة، فهي إذن تماثل قوى الأرض والتربة الخصبة، ولكن هناك فرقاً بين الاثنين هو الفرق بين السالب والموجب فالأرض أو /كي/ لا تتحرك فحصبها إنتاجية منفعلة أو سالبة أما الماء فيجيء ويذهب ويجري في الحقل ويرويه ثم يغيض فكأن له إرادة وهدف ثم أن للماء طرقاً في الجريان إنه لا يعلو العوائق بل يتحنبها غير أنه يبلغ هدفه، والفلاح الذي يروي حقله يه يعرف مكره وجريانه إلى حيث لا يريد أحياناً، وهناك نشيد سومري يصف وظيفة الماء:

وإليك قد عهد بأن تنقي الغمق الطاهرتين

من دجلة والفرات

وأن تكثر اليانع من الخضرة وتكثف الغيوم

وتغدق الماء على الأرض الحريث

وتنبت الغسائل في المزارع والحدائق

الملتفة النبت كالغاب

هذه كلها عهد إليك بها أنو ملك الآلهة.

انتهت المحاضرة

Scanned by CamScanner